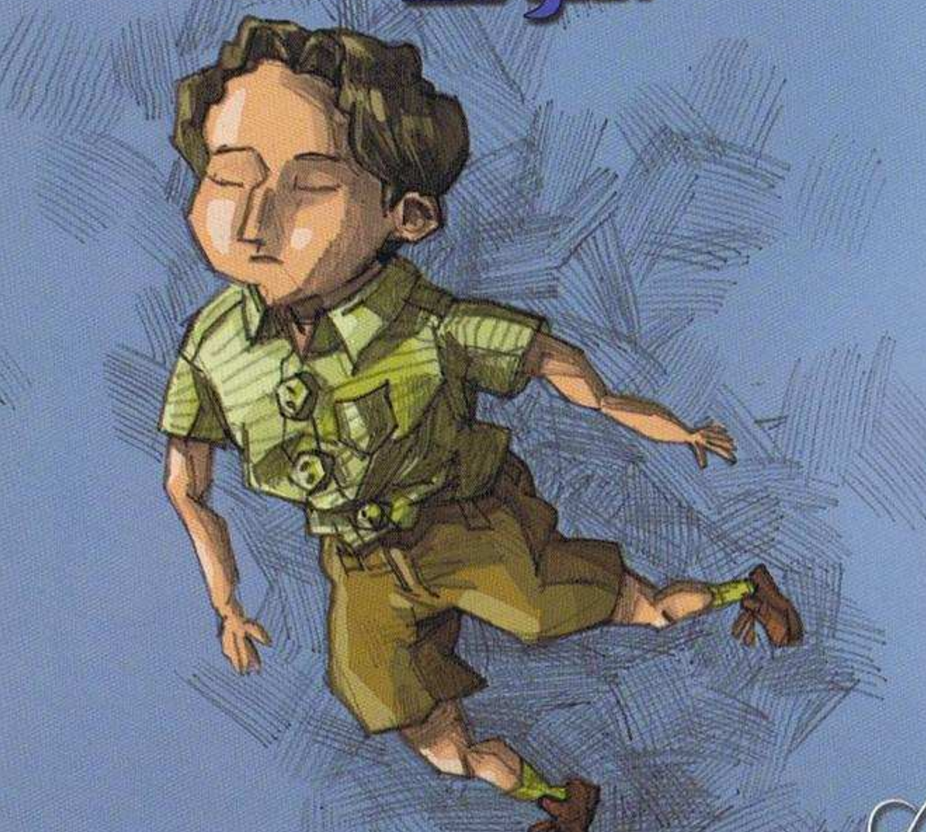
تأليف
د.سناء علي الحركه

رسم
غدي غصن

حكاية نديم

التَّوحّد



أقرأ بقلبي

الإهداء : إلى طلاّبي وطالباتي

الَّذين عشتُ معهم حكايةً من حكايا العمر

حكاية أقرأها بقلبي .

سناء

دار النهضة العربية
أصالة للنشر والتوزيع - طبعة أولى 2012
ISBN: 978-614-402-506-2
تلفون: 093 736 1 961+
فاكس: 071 736 1 961+
ص.ب.: 11/3434
الزيدانية، بناية كريدية - بيروت، لبنان
infos@asala-publishers.com

حكاية نديم

التَّوحّد

تأليف

د. سناء علي الحركه

رسم

غدي غصن

أقرأ بقلبي

المقدِّمة

أريدُ أن يَعرِفَ أصدقائي الحكايةَ، ولكنّني لا أدري مَنْ يَجبُ عليه أن يرويَها: أنا أو أنتِ يا أمّي لأنَّكِ عِشْتِ كلَّ تفاصيلِها لحظةً بلحظة .

أريدُ أن يَعرِفَ أصدقائي الحكايةَ، ولكنّني لا أدري مِنْ أين يَجبُ أن نبدَأَها: أمِنْ لحظةِ عَلِمْتُما ، أنتِ وأبي، بِمشكلةِ أخي «نديـم»، أم مِنْ لحظةِ عَلِمْنا ، أنا وأختي الصّغرى «ندين» بِها.

أريدُ أن يَعرِفَ أصدقائي الحكايةَ، ولكنّني لا أدري حقًّا إذا كان يَصِحُّ أن أَعتبرَها حكايةَ مشكلةٍ نعيشُها، أو حكايةَ حبٍّ نَتَقاسَمُهُ.

هذه مجموعةُ أسئلةٍ حمَلْتُها إلى أمّي الَّتي قالَتْ لي: « اسمعْ يا «نبيل»، سأبدأُ أنا الحكايةَ، وستُكْمِلُها أنتَ. سأبدأُ من لحظةِ عَلِمْنا، أنا ووالدُكَ، بِـمشكلةِ «نديم»، وستُكْمِلُها أنتَ من اللحظةِ الَّتي تَختارُ. وسنتركُ لِـمَنْ يَقرأُ الحكايةَ أن يَحكمَ إذا كان ما قرأَهُ حكايةَ مشكلةٍ أو حكايةَ حبٍّ».

الفصل الأوَّل: «نديم» مختلف

عندما وُلِدَ «نديم» فرحْتُ كثيرًا ، فقد كان طِفلاً بصحَّةٍ جيِّدةٍ، ووجهٍ ملائكيٍّ. وفَرِحَ زوجي لأنَّ أسرَتَنا تكبُرُ ، كما تكبُرُ أحلامُنا. وفرِحَ ابني البكر «نبيل»، على الرُّغم من صِغرِ سِنِّه، وعَجْزِهِ عن تَحويلِ مشاعِرِهِ إلى كلماتٍ. فقد كانتْ ضَحِكاتُهُ وحركاتُهُ تَنْقُلُ الفرحَ كعدوى تُصيبُ كلَّ زائرٍ يَقصِدُنا لتقديمِ التَّهنئةِ بالمولودِ الجديدِ .



مرَّتِ الأيَّامُ بسرعةٍ، وبسرعةٍ أدركْتُ أنَّ «نديـم» لا يُشبهُ ابني «نبيل» بشيءٍ. وأنا، الإنسانةَ المتعلِّمَةَ، الَّتي تعرِفُ تَـمامَ المعرفةِ أنَّهُ لا يَحقُّ لنا أن نُقارِنَ ولدًا بآخرَ ، حتَّى ولو كان أخًا له ، لم أستطِعْ إلاَّ أن أُقارِنَ بينَهما. ربَّـما لأنَّني كنتُ أبْحثُ عمَّا أجهَلُهُ. فقد كنتُ أشعرُ أنَّ «نديـم» طِفلٌ مختلفٌ، ولكن كيف ؟ ولِمَ ؟ لا أعرف.

مرَّت الأيَّامُ بسرعةٍ ، وبسرعةٍ أدركْتُ أنَّ «نديـم» لا يُشبهُ بتصرّفاتِهِ الأطفالَ الَّذين عرَفْتُهم في حياتي . فقد كان يَجِدُ صعوبةً كبيرةً في التَّواصلِ معي، أو مع والِدِهِ، أو مع أخيه. كما كان يَجِدُ صعوبةً في التَّفاعلِ معنا ، إذْ لم يكنْ يرغبُ في أن نكونَ معه، أو أن نُحدِّثَهُ، أو أن نُلاعِبَهُ. وإذا حدثَ أن تَفاعلَ مع أحدِنا فلوقتٍ قصيرٍ، ليعودَ بَعدها إلى نفسِهِ، إلى عالَـمِهِ الخاصِّ، هذا العالَمُ الَّذي لم أكنْ أعرفُ كيف يُـمكنُ أن أكونَ جزءًا منه ، لا حبًّا بالمعرفةِ ، ولكن حبًّا بالبقاءِ مع «نديـم» الَّذي كثيرًا ما كنتُ أشعرُ أنَّهُ قربي، لكنَّهُ لا يسمعُني، ولا يراني ، ولا يشعرُ بي . وكم كان يُؤْلِـمُني شعوري هذا !

مرَّت الأيَّامُ بسرعةٍ، وبسرعةٍ أدركْتُ أنَّ «نديـم» لا يُشبهُ إلاَّ نفسَهُ. فكلُّ ما يقومُ به مختلفٌ عمَّا رأيْتُهُ في حياتي، أو قرأْتُهُ .



له أسلوبُهُ الخاصّ في التَّعبيرِ عن نفسِه. فقد كان يَضحكُ من دون أن أعرفَ سببًا لضَحِكِهِ، الأمرُ الَّذي لطالَما أثارَ حَيْرتي. ويَبكي من دون أن أعرفَ سببًا لبكائِهِ، الأمرُ الَّذي لطالَما أثارَ حُزْني.

له أسلوبُهُ الخاصُّ في اللَّعب. فقد كان يقومُ بحركاتٍ مُكرَّرةٍ بيديْهِ، أو بأصابعه. أو يلعبُ باللّعبةِ نفسِها، وبالطَّريقةِ ذاتِها، فيَمضي الوقتُ، ولا يَـمَلُّ. وعبثًا تذهبُ محاولاتي لِثَنْيِهِ عمَّا يَفعلُهُ، كما تذهبُ



محاولاتي هَدْرًا للَّعبِ معه بألعابِهِ الَّتي لا يراها سِواه ، أو بالألعابِ الّتي تَنتشِرُ في أرجاءِ الـمنْزلِ، ولا يراها سِوانا: أنا ووالدُه وابني «نبيل». أمّا «نديم» فقد كنتُ على يَقينٍ ، على الرَّغمِ من افتِقاري للدَّليلِ، أنَّهُ لا يَراها.

له أسلوبُهُ الخاصُّ في الوصولِ إلى ما يُريدُ. فكثيرًا ما كانَ يأخذُ يدي ويَجُرُّني لآتي له بشيءٍ يريدُهُ ، على الرَّغمِ من أنَّ هذا الشَّيْءَ بِـمتناولِ يدِه هو.

وله أسلوبُهُ الخاصُّ في التَّواصلِ اللَّفظيِّ إذْ يُخْرِجُ أصواتًا مَسموعةً، مَفهومةً بالنِّسبةِ إليه، أو هكذا كنتُ أعتقدُ ، ومُبْهمةً بالنِّسبةِ إلينا. ومع الوقتِ صارتْ هذه الأصواتُ ،وهي في حَقيقَتِها لغةُ التَّواصلِ بينه وبين عالَمه الخارجيِّ، مفهومةً بالنِّسبةِ لي، أو هكذا كنتُ أُحبُّ أن أدَّعي كي أتواصلَ معه . لم أكنْ راغبةً في تركِهِ وحيدًا في عالَمٍ أنا لا أعرِفُهُ، ولا أعرفُ كيفيَّةَ الدّخولِ إليه، لا حبًّا باكتشافِ أسرارِه، بل خوفًا عليه من وَحْدَتِهِ بعدما صرْتُ على يَقينٍ أنَّ «نديـم» يُـمْكنُه ألاَّ يَسْمَعَني، وألاَّ يراني ، وألاَّ يَشعرَ بي إذا شاءَ أن ينفردَ بنفسه، ويدخلَ عالَـمًا مألوفًا بالنِّسبةِ إليه ، مجهولاً بالنِّسبةِ إليَّ ، مُريحًا بالنِّسبةِ إليه ، مُتْعِبًا بالنِّسبةِ إليَّ. وكم كان يوجِعُني يَقيني !

الفصل الثَّاني: البحث عن الحقيقة

لم يتمكَّن الأطبَّاءُ، في ذلك الوقتِ، من تبريرِ ما يَحصلُ مع «نديـم» علميًّا. فكلُّ شيءٍ كان طبيعيًّا في رأيهم: فحوصاتُه الطّبيّـةُ، والصّورُ الشّعاعيّةُ. ولكنَّ صوتًا داخليًّا كان يصرُخُ بي أنَّ «نديـم» يُعاني مشاكلَ تَظهرُ في عدم قدرتِهِ على التَّواصلِ والتَّعبيرِ والفهمِ. ولم أُفاجَأْ عندما سمعْتُ هذا الصَّوتَ يَخرجُ من داخلِ زوجي ليصلَ إلى أُذنيَّ ، بل إلى عينيَّ، كأنّه أرادَ أن يَفتَحَهما على حقيقةٍ ما كنتُ أتَـمنَّى أبدًا أن تكونَ الحقيقةَ .

ذلك اليوم، جاءَ صوتُ زوجي هادئًا، كما دائمًا، واضحًا كما دائمًا، صادقًا ، كما دائمًا ، ولكنَّني في تلك اللَّحظةِ بالتَّحديدِ ، كَرِهْتُ صِدْقَهُ وما حمَلَهُ لي من حقائقَ مبنيَّةٍ على وقائعَ . وكم أخجلُ من أن أعترفَ بأنَّني في تلك اللَّحظةِ كَرِهْتُ زوجي ، وكَرِهْتُ نفسي ، وكَرِهْتُ أفرادَ عائلَتي ، وكَرِهْتُ حياتي !

في ذلك اليوم دارَ حوارٌ بيني وبين زوجي، وكان الحديثُ كمرآةٍ رأيتُ من خلالها ما كنتُ أرفضُ أن أراهُ . فقد اقتربَ منّي وجلسَ إلى جانبي، وسألني : «كم بلغ عمر «نديـم» ؟». أجبْتُه قائلةً : « أنتَ تعرفُ



تَمامًا أنّـهُ في الثَّالثةِ والنِّصف من عمرِه » .

ــ في الثَّالثةِ والنِّصف من عمرِه، ولكنّه مايزالُ غيرَ قادرٍ على النّطقِ.

ــ هذا لأنَّه لا يبذلُ جهدًا حقيقيًّا .

ــ لا ، هذا لأنّه يواجه صعوباتٍ.

ــ ولكنَّهُ سيتخطَّاها . سيتخطَّاها حتمًا مع مرورِ الأيَّامِ.

ــ «نديـم» يَجِدُ صعوبةً كبيرةً في التَّواصلِ غيرِ الشَّفهيِّ، كالاتِّصالِ النَّظريِّ، أو استعمالِ تعابيرِ الوجهِ الَّتي يُتقنُها الأولادُ في سِنٍّ مبكرةٍ ،

ما يَجعلُهُ يلجأُ إلى البكاءِ في كثيرٍ من الأحيانِ .

ـــ كلُّ الأولادِ يلجأون إلى البكاءِ عند مواجهةِ صعوباتٍ.

ـــ «نديم» ليس ككلِّ الأولاد . إنَّهُ يَجِدُ صعوبةً كبيرةً في التَّواصلِ الشَّفهيِّ كلفظِ كلماتٍ، وصياغةِ جملٍ، الأمرُ الَّذي يُشيرُ إلى عدمِ فهمِهِ أساسًا لمعاني الكلماتِ ، وبالتَّالي عجزِهِ عن استخدامِها، ما يَجعلُهُ يلجأُ إلى الصّراخِ في معظمِ الأحيانِ.

ـــ كلُّ الأولادِ يلجأون إلى الصّراخ عند مواجهةِ صعوباتٍ.

ـــ «نديم» ليس ككلِّ الأولاد . أنا على يقينٍ أنَّ بكاءَ «نديم» وصراخَهُ كأنَّهما في تَحدٍّ مع قدرَتِكِ على الصَّبرِ وقدرتي .

ـــ لا تَخفْ عليَّ ، سأصْبِرُ دائمًا .

ـــ الصَّبرُ وحدَهُ لا يكفي. أريدُكِ أن تَمدِّي يدَكِ إلى يدي الممدودةِ لكِ لِنَنْهَضَ معًا من صمْتِنا ، ونَسيرَ باتِّجاهِ الصّوتِ، نرْفَعُهُ طلبًا للمساعدةِ.

ـــ المساعدة ؟

ـــ نعم، المساعدة. لا أريدُ أن يضيعَ منّا «نديم» لأنّنا نَشهدُ الحقيقةَ، ونَخافُ أن نعترفَ بِها لأنّنا نَخافُ النَّاسَ، ونظراتِ النَّاسِ، وكلامَ النَّاسِ. حبّي لكِ ولابني أكبرُ من خوفي، لذا أريدُكِ أن تسيري معي

بَحثًا عن الحقيقةِ».

ـــ أيُّ حقيقة ؟

ـــ حقيقةُ مشكلةِ «نديم» .

وأخذَ زوجي القرارَ: سنسافرُ و«نديم» إلى الولاياتِ المتَّحدةِ الأميركيَّةِ، وتَحديدًا إلى ولايةِ «لوس أنجلوس» لإخضاعِهِ لمجموعةٍ من الاختباراتِ بِهدفِ تَشخيصِ حالتِهِ بالملاحظةِ المباشرةِ لسلوكِهِ ومعدَّلاتِ نُموِّهِ وعلاقاتِهِ بالآخرين .

حزَمْنا حقائبَنا وانطلقْنا في رحلةِ البحثِ عن الحقيقةِ .



الفصل الثَّالث : «نديم» يُعاني التَّوحّد

« «نديم» يَعيشُ في عالَمِهِ الخَاصّ». جملةٌ كانت كافيةً لتُغيِّرَ حياةَ العائلة . فقد أدْرَكْنا في لحظةٍ أنَّنا سنعيشُ مع طِفلٍ مختلفٍ يُعاني التَّوحُّدَ. والتَّوحُّد هو حالةٌ تُعيقُ تطويرَ بعضِ المهارات كالتَّواصلِ مع الآخرِ ، والتَّأقلمِ مع البيئةِ المحيطةِ . ويكون نتيجةَ اضطرابٍ في الجهازِ العصبيِّ، الأمرُ الّذي يؤثِّرُ على وظائفِ المخِّ .

« «نديم» يَعيشُ في عالَمِهِ الخَاصّ». هذا ما قالَهُ الطَّبيبُ بعدما أَخضعَ «نديم» لاختبارات عدّة. عندها نظرْتُ في عيْنَي زوجي وقلْتُ بِحزم : «سنُعالِجُ «نديم» بصمتٍ » . وما لبثْتُ أن اكتَشَفْتُ بعدَ أقلَّ من أسبوعٍ أنّهُ لا يُمكننا أن نُعالِجَ «نديم» إلاَّ بصوتٍ عالٍ .

والحقيقةُ أنَّني كنتُ بِحاجةٍ لأن أفهمَ أوَّلاً ماذا يعني أن يُعانيَ طِفلٌ التَّوحُّدَ. وكان عليَّ ـ ثانيًا أن أتقبَّلَ أنَّ طِفلي أنا يُعاني التَّوحُّدَ. وكان عليَّ ثالثًا أن أتأكَّدَ أنَّ طِفلتي الَّتي وضعْتُها منذ أربعةِ أشهرٍ، وتركْتُها ورائي، برعايةِ أهلي ، لم تكن تُعاني ما يُعانيه أخوها .

وعليَّ أن أعترفَ أنَّني عندما سمعْتُ كلمةَ «توحُّد» شعرْتُ برغبةٍ قويَّةٍ في الصّراخِ. كنتُ أريدُ أن أصرخَ بصوتٍ عالٍ وأقولَ: لا،

نتيجةُ هذا التَّشخيصِ لا تعودُ لابني «نديم». نتيجةُ هذا التَّشخيصِ تعودُ لطفلٍ ليس طِفلي ، وقد وصلَتْني عن طريقِ الخطأ. كنتُ أريدُ أن أصرخَ بصوتٍ عالٍ وأقولَ : لا، ابني «نديم» لا يُعاني التَّوحُّدَ، وإذا كان يُعاني التَّوحُّدَ فهو ليس ابني ، إنَّما نُسِبَ خطأً إليّ .

لكنَّني ، في هذه اللَّحظةِ الَّتي رفضتُ فيها «نديم» ابنًا لي شعرْتُ بثورةِ دمٍ في شرايينِ قلبي الَّذي راحَ ينبِضُ بِحبِّه ، وينبِضُ لأجلِهِ. للمرَّةِ الأولى وجدْتُ سببًا لوجودي في هذه الحياةِ ، وأيُّ سببٍ أهمُّ من احتضانِ «نديم» ورعايَتِهِ والسَّيرِ معه في طريقِهِ المجهول ؟



لَم أصرخْ ، قرَّرْتُ أن أصمتَ . قرَّرتُ أن أعتبرَ حالةَ «نديم» سرًّا من أسرارِ عائلتي، سرًّا أُخبِّئُه في تفاصيلِ يوميَّاتي بعيدًا عن النَّاسِ الَّذينَ كنتُ على ثقةٍ تامَّةٍ أنَّهم سينظرون إلينا نظرةَ شفقةٍ ما كنتُ أريدُ أن أراها ، ولا كنتُ أعتقدُ أنَّني سأتقبَّلُها . لذلك قرَّرْتُ أن أُتابعَ وضعَ «نديم» الخاصَّ بسرِّيَّةٍ تامَّة . ولكن كيف ؟ إذا أردْتُ له ألاَّ يكونَ سجينَ حياتي فهذا يعني أنَّه سيكونُ شريكًا للنَّاسِ في حياتِهم، على الرُّغم من أنَّه ، حتَّى الآن ، يعجزُ عن مشارَكَتِهم في عالَمِهم، لأنَّهُ يعيشُ في عالَمِهِ. وهذا يعني أنَّهم سيَرَوْنَ ما رأيتُه أنا في «نديم» من اختلافٍ . وسيسمعون منه ما أسمعُه أنا من عجزٍ عن التَّواصلِ. وسيلمسون ما ألْمَسُهُ أنا من رفضٍ في التَّفاعلِ. وسيُدركون ما أُدْرِكُهُ أنا من تراجُعٍ في مهاراتِه المعرفيَّةِ وطاقاتِه الإدراكيَّةِ . وسيعرفون أنّني أُخبِّئُ حقيقةً كالشَّمسِ ساطعةً .

وصرخْتُ بصوتٍ عالٍ ، كأنّني أردْتُ أن أسمعَ أنا أوَّلاً قبل أن يسمعَ الآخرون : « «نديم» ابني، جزءٌ من قلبي قبل أن يكونَ جزءًا من جسدي . وهو جزءٌ من فكري قبل أن يكونَ جزءًا من حياتي. وهو فردٌ من أفراد عائلتي. وجودُهُ ضروريٌّ، واحتضانُهُ أساسيٌّ. رعايتُه مسؤوليَّتي ، وتقبُّلُهُ ، كما هو ، خِياري ، ومحبَّته عميقةٌ عميقةٌ عميقةٌ.

الفصل الرَّابع: الحبّ بداية الطَّريق

لم يعدْ سرًّا يَخفى على أحدٍ. الكلُّ باتَ يعرفُ أنّ «نديم» يُعاني التَّوحُّدَ، وأنَّنا قرَّرْنا أن ننقلَهُ إلى عالَـمِنا، على الرُّغمِ من صعوبةِ تنفيذِ قرارِنا. وبدأتْ مسيرةُ التَّعليمِ إذْ كان عليَّ أن أتعلَّمَ كيف يَجبُ أن أتعاطى معه كي أصلَ إليه، في عالَـمِهِ الخاصِّ، تَـمهيدًا لأعودَ به إلى عالَـمِنا .



ومن جديد، أخذَ زوجي القرارَ: «سأعودُ أنا لأكونَ أمام ولديْنا، فهما أيضًا بِحاجةٍ إلينا، ولأتابعَ أعمالي الَّتي تراكمَتْ بانتظارِ عودتي، فنحن بِحاجةٍ أن نَـجنيَ المالَ لندفعَ تكاليفَ متابعةِ التَّغييرِ الإيجابيِّ المنتظرِ في سلوكِ «نديم»، وتنميةِ مهاراتِهِ وتطويرِ طاقاتِه. وستبقَيْن أنتِ هنا مع «نديـم» الَّذي سيرعاهُ أفرادُ عائلتي في الوقتِ الَّذي ستحضرين فيه صفًّا من صفوفِ تدريبِ الأهلِ والمتطوّعين لرعايةِ الأطفالِ الَّذين يُعانونَ التَّوحُّدَ».

وكالعادةِ، كان صوتُهُ هادئًا، كما دائمًا، واضحًا كما دائمًا، صادقًا، كما دائمًا . هذا الصّدقُ الّذي كان عليَّ أن أُعيدَ علاقتي به بعدما كرهْتُهُ لأنَّهُ لا يَكذبُ، فقد كنتُ في أشدِّ الحاجةِ إلى أن أُصدِّقَ كذبةً. هذا الصِّدقُ الَّذي يُـمثِّلُ في وجهٍ من وجوهِهِ شكلَ زوجي، ويُجسِّدُ حضورَهُ، ويَستعيرُ صوتَهُ.

وقبلَ أن يُغادرَ في طريقِ عودتِهِ استوقفْتُهُ، ونظرْتُ في عيْنَيْه اللّتيْن كانتا تَغرقان في دموعٍ لا تسيلُ، وإنـمَّا تُضيءُ. نظرْتُ طويلاً قبل أن أقولَ له: «أُحبُّكَ، وسأحبُّكَ دائمًا ، أعدُكَ ».

أقلعَتْ به الطَّائرةُ ، وبقيتُ وحدي ورَجْعُ كلمةِ « أحبُّكَ» يَتردَّدُ في أعماقي. « أحبُّكَ » تعني أنَّني سأكونُ قويَّةً. سأكونُ قويَّةً تعني أنَّني

سأتقبَّلُ. سأتقبَّلُ تعني أنَّني سأتعلَّمُ . سأتعلَّمُ تعني أنَّني سأبْحثُ، وسأقرأُ، وسأتدرَّبُ، وسأُطبِّقُ، ما يعني أنَّني قد أُصيبُ وقد أُخطِئُ، ولكنَّ المهمَّ أنَّني سأبدأُ.

وبدأْتُ بمتابعةِ صفوفِ برنامجِ التَّدريبِ. كانت الفكرةُ الأساسيَّةُ الَّتي يَقومُ عليها برنامجُ التَّدريبِ بسيطةً جدًّا، ويُمكنُ تلخيصُها بِجملةٍ واحدةٍ هي أنَّ أيَّ إنسانٍ، مهما بلغَ مستوى ذكائه، بحاجةٍ إلى دافعٍ كي يَقومَ بأيِّ عملٍ. وعلى الرُّغم من بساطة الفكرةِ إلاَّ أنَّها ألـمَتْني، لأنَّها أشْعرتْني أنَّ عليَّ أن أجدَ دافعًا لابني كي يقومَ بأفعالٍ هي في اعتقادي



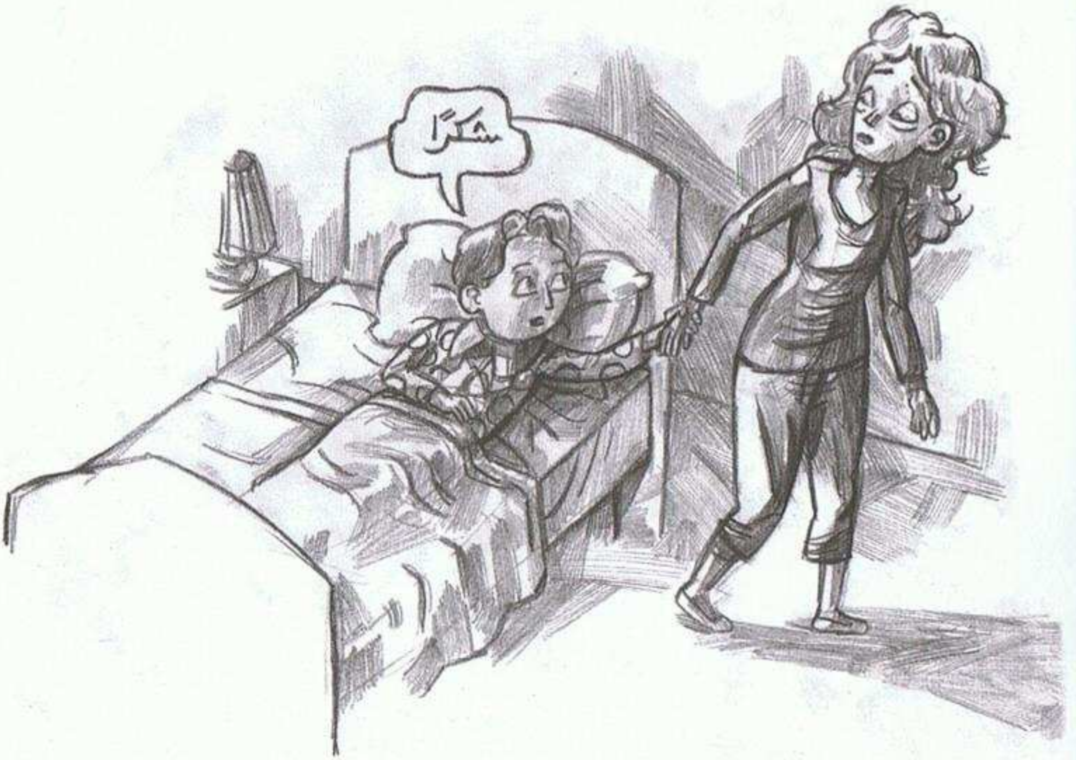
بسيطة جدًّا، وأن أُكافِئَهُ على كلِّ سلوكٍ جيِّدٍ ، أو على عدم ارتكابِ السُّلوكِ السَّيِّئ .

لَم يكن الأمرُ سهلاً، وإنَّما كان صعبًا جدًّا، ولكنَّني أريدُ أن أؤكِّدَ أنَّ اتِّصالاتِ زوجي الدَّائمةَ بي، وقدرتَهُ على الإصغاءِ إلى هواجسي، واحتمالَهُ لنوباتِ بكائي بعد نهارٍ طويلٍ من التَّدريب، واستيعابَهُ لمشاعرِ حزني، ومشارَكتَهُ لأفكاري المشوَّشةِ، كلُّها عواملُ ساعدَتْني من حيثُ لا أدري على الوفاءِ بوعدي له. والوعدُ أن أكونَ قويَّةً في مواجهةِ مشاكلِ «نديم»، وأسيرَ باتِّجاهه بدلاً من إجبارِهِ على السَّيرِ باتِّجاهنا ، الأمرُ الَّذي لا قدرةَ له عليه في الوقتِ الحاضر.

نعم ، لقد ساعدَني زوجي ، من حيث يدري ، على الوفاءِ بوعدي له. ألَمْ أعِدْهُ أنَّني سأُحبُّهُ دائمًا ؟ ألَمْ يَعْنِ لي هذا الوعدُ أنَّني يجبُ أن أكونَ قويَّةً في مواجهةِ ما يعترضُ طريقَ «نديم» من صعوباتٍ؟

ها قد جاءَ الوقتُ لأقولَ لزوجي شكرًا لأنَّكَ ساعَدْتَني على الوفاءِ بوعدي لكَ. ساعَدْتَني لأنَّكَ أيضًا أحْبَبْتَني . وكم ساعدَ هذا الحبُّ «نديم»، إذْ لم يكن ممكنًا أن نتقبَّلَهُ، ونأخذَ بيدِهِ ، ونسيرَ معه تارةً إلى حيثُ يريدُ ، وطورًا إلى حيثُ نريدُهُ أن يصلَ، لولا هذا الحبُّ الكبيرُ الذي شعرْنا به نَحو بعضِنا بعضًا، ونَحوه .

لن أنسى تلك اللَّحظةَ الَّتي وضعْتُ فيها «نديم» في سريرِه بعد يومٍ طويلٍ أمضاهُ من دون مللٍ أو تعبٍ يبكي ويصرخُ ويرفضُ رفضًا قاطعًا كلَّ شيءٍ وأيَّ شيء . في تلك اللَّحظة كنتُ أريدُ أن أتركَهُ لنومِه، وأغادرَ غرفَتَهُ إلى غرفتي لأبكي . كنت متعَبةً حدَّ الشُّعورِ بالبكاءِ. في تلك اللَّحظةِ شَدَّ على يدي قبل أن أُغادرَ ، التفتُّ إليه ، فإذا في عينيْه صفاءٌ عميقٌ. وبوضوح تامٍّ قالَ: «شكرًا». وأغمضَ عينيْه فأخذَهُ النَّومُ بأمانٍ، وبقيتُ ساهرةً أسألُ نفسي متى تعلَّمَ هذه الكلمةَ ؟ وماذا تعني بالنِّسبةِ إليه ؟



لم يَـمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى جاءني الجوابُ من زوجي الذي قال: «أريدُكِ أن تعرفي أنّ«نديـم» يشعرُ بحبِّكِ له، ويُقدِّرُهُ، ويشكُرُكِ عليه .شكرًا لأنّكِ تـُحبّينَهُ كثيرًا، وأنا أحبُّكِ كثيرًا كثيرًا كثيرًا».

الحبُّ الَّذي كنتُ أشعرُ به نحو زوجي، ويُشعرُني به في كلِّ وقت لم يكن وحدَهُ سببَ قوَّتي، فوجودُ أفرادِ عائلتي إلى جانبي أحدثَ فرْقًا كبيرًا . وعندما أقولُ أفرادَ عائلَتي إنّـما أقصدُ عائلتي وعائلَةَ زوجي الّتي فتحَتْ لي، ليس فقط بابَ بيتِها في الولاياتِ الـمتَّحدةِ الأميركيَّةِ، وإنـما أيضًا بابَ قلبِها، وشرَّعَ الجميعُ صبرَهُ ، الّذي ينبعُ أساسًا من الحبِّ، ليستوعبَ «نديـم» وطرائقَهُ المختلفةَ في الحياةِ والتَّواصلِ والتَّفاعلِ والتَّعبيرِ. وأعترفُ أنَّها لم تكنْ طرائقَ يُـمكنُ التَّكيّفُ معها، ومع هذا بذلَ جدّاهُ كلَّ جَهْدٍ لاستيعابِهِ بكلِّ الحبِّ. وهذا ما قامَ به والداي في لبنانَ عندما حضَنا طفليَّ، وحاولا تأمينَ ما يَحتاجانِهِ من الحبِّ والحنانِ والرِّعايةِ، لأنّني لم أكنْ قادرةً في ذلك الوقتِ على رؤيةِ أيِّ شخصٍ سوى «نديم»، ولا القيامِ بأيِّ عملٍ سوى ما أفعلُهُ من أجلِ «نديم»، ليس لأنَّني أُحبُّهُ أكثرَ من سواه، ولكن لأنَّه يَحتاجُ إليَّ أكثرَ من سواه، هذا ما اعتقدْتُهُ طوال كلِّ الأعوامِ الَّتي تلت، إذْ هل يُعقلُ أن أكونَ قد أحبَبْتُهُ أكثرَ مِمَّا أحْبَبْتُ حياتي الَّتي تتمثَّلُ في زوجي وابني وابنتي؟

الفصل الخامس: عون من اللّه

في طريقِ عودتي من الولاياتِ المتَّحدةِ الأميركيَّةِ إلى لبنانَ كان عليَّ أن أجتازَ و«نديم» بلادًا وبحارًا ومحيطاتٍ، كما كان عليَّ أن أنتظرَ في مطاراتِ العالَمِ ساعاتٍ وساعات. ومنذ اللَّحظةِ الأولى الَّتي وجدْتُ نفسي فيها في أوَّل مطارٍ بدأ «نديم» نوبةَ بكاءٍ لم تنتهِ على الرُّغم من كلِّ محاولاتي لاحتوائها، تارةً عبر تَجاهُلِها، وطورًا عبر استيعابِها. بكاؤُهُ اسْتدعى تَجمُّعًا كبيرًا للنَّاسِ من حولي في محاولةٍ



لتقديم مساعدةٍ لأمٍّ عاجزةٍ عن التَّحكُّم بأفعالِ طِفْلِها. وكلُّ ما كنتُ أحتاجُهُ في تلك اللَّحظةِ أن يتركَني النَّاسُ وشأني، أن يَنسَوا وجودي بينهم، أن يَصمّوا آذانَهم فلا يَصلُهم صوتُ بكاءِ ابني ولا صراخُهُ المستمرُّ من دونِ انقطاعٍ. ولا أبالغُ إذا قلْتُ إنَّ نوبةَ بكائه استمرَّتْ ساعاتٍ، وأخَّرَتْ صعودَ المسافرينَ إلى الطّائرةِ لأنَّهُ رفضَ إلاَّ أن يتمدَّدَ على أرضِ الطَّائرةِ، مانعًا الرُّكّابَ من الوصولِ إلى مقاعِدِهم خشيةَ أن يُصيبوه بأذى من دونِ قصدٍ. فقد كان يتحرَّكُ باستمرارٍ، تارةً يَميلُ إلى اليمينِ، وتارةً إلى الشِّمالِ، طورًا إلى الأمامِ، وطورًا إلى الخلفِ، وصراخُهُ يملأُ المكانَ، ويَحجِزُ مقاعدَ الرُّكّابِ المنتظرينَ في الخارج.



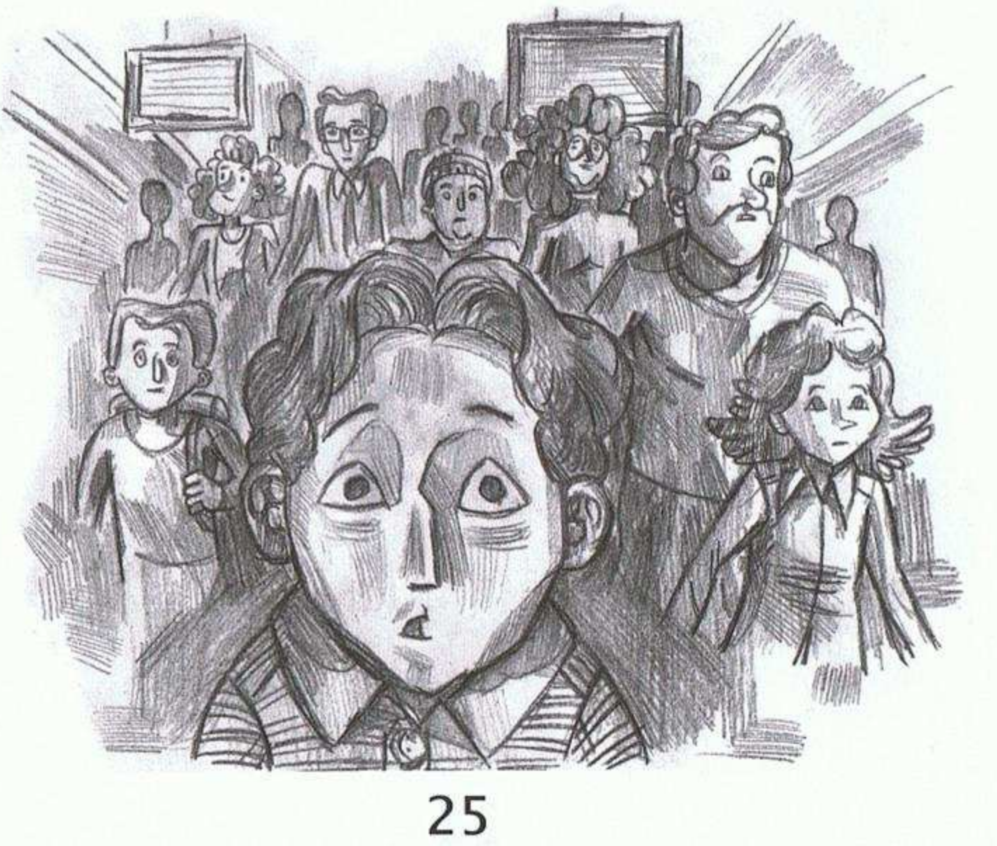
لا أدري لِما فكّرْتُ بابني «نبيل» وابنتي «ندين» الَّتي تركْتُها طِفلةً رضيعةً لأكونَ مع «نديم»، واعتقدْتُ أنَّهُ لا يُمكنُ لهما أن يعيشا مع طِفلٍ يَفتقرُ إلى أبسطِ مقوِّماتِ التّفاعلِ الاجتماعيِّ، والتَّواصلِ الكلاميِّ، والسّلوكيّاتِ المقبولةِ. ولأنَّ مشاعرَ من شوقٍ كبيرٍ لهما اجتاحَتْني في تلكَ اللَّحظةِ الَّتي لَمْ أكنْ قادرةً خلالَها على الاستسلامِ لها بسببِ الصّراخِ الَّذي كان كالهواءِ يَملأُ عينيَّ وأذنيَّ وفكري وقلبي وأعماقي، دعوْتُ اللهَ بِحُرقةِ الإنسانِ العاجزِ أن يَأخذَني و«نديم» إلى السَّماءِ، حيثُ للملائكةِ والأنبياءِ قدرةٌ على احتمالهِ لا نَملكُها نحن البشر، فقد خِفْتُ أن يُسبِّبَ وضعُ «نديم» آلامًا للَّذين أحبُّهم كالآلامِ الَّتي أشعرُ بِها الآن.

وفي هذه اللَّحظة الَّتي دعوْتُ فيها اللهَ بصدقٍ كي يَضعَ حدًّا لعذاباتي بوضعهِ حدًّا لحياتي وحياةِ «نديم»، صَمَتَ «نديم». كأنَّ يدًا سحريَّةً امتدَّتْ إليه، ولامسَتْهُ، وهدَّأتْ من روعِهِ ، فاستكانَ لها وصمتَ. وسرى الصَّمتُ بين صفوفِ المسافرينَ المنتظرينَ على سلالمِ الطَّائرةِ ومداخلِها ، حتَّى اعتقدْتُ لِلَحظةٍ أنَّني أسيرُ و«نديم» في رحلةِ الانتقالِ من عالمِ الحياةِ الصَّاخبِ إلى عالمِ الموتِ الهادئِ .

مرَّ وقتٌ قبل أن أجرؤَ على إلقاءِ نظرةٍ على نفسي ومَنْ حولي. فإذا أنا جالسةٌ على مقعدي، و«نديم» بين يديّ يُداعبُ النّعاسُ أجفانَهُ، ويؤرجِحُهُ بين اليقظةِ والنَّومِ قبل أن تَستدعيَه الأحلامُ إلى عالَمِها الجميلِ، والطَّائرةُ تُحلّقُ بسلامٍ فوق الغيومِ، وركّابُ الطَّائرةِ صامتون، كأنَّهم خائفون من أن يُحدثوا صوتًا ويُزعجوا «نديم» ويوقظوه من نومِهِ فيعاود نوبةَ البكاءِ والصّراخِ الَّتي ما كان يُمكنُ احتمالُها من جديدٍ.

صمتٌ جميلٌ ولكنَّهُ في الوقتِ نفسِهِ مخيفٌ. صمتٌ منحَني فرصةَ العودةِ إلى الله لأستغفرَهُ وأطلبَ السَّماحَ. كيفَ يُمكنُ أن أضعفَ إلى درجةِ أن أتَمنَّى الموتَ لي ولطفلي كي أنْجوَ من موقفٍ وضَعَني فيه هذا المخلوقُ العاجزُ عن تفهُّمِ عالَمِهِ الخارجيِّ؟ وهل يُعقلُ أن أكونَ أنانيَّةً لدرجةِ أنَّني فكَّرْتُ بالإحراجِ الَّذي سبَّبَهُ لي، والألمِ الَّذي شعرْتُ به، ولم أنتبهْ للإزعاجِ الَّذي سبّبْتُهُ له عندما حملْتُهُ من البيتِ، المكانِ الَّذي بدأَ يَعتادُ على وجودِهِ فيه، وأخذْتُهُ إلى المطارِ حيث الكثيرُ من الوجوهِ والأصواتِ والأنوارِ، وذلك من دون إعلامِهِ بهذا الانتقالِ، على الرَّغم من أنّني تعلَّمْتُ أنَّ إعلامَهُ بالانتقالِ من المكانِ ضرورةٌ لكي أُخفِّفَ من قلقِهِ نَحو التَّغييرِ، ورفضِهِ له، وخوفِهِ منه، ولأتفادى نوبةً كنوبةِ البكاءِ والصُّراخِ الَّتي أخذْتُهُ إليها بِجهلٍ وغباءٍ؟

لقد أخْرَجْتُهُ من جوٍّ الأمانِ والهدوءِ والرَّاحةِ الَّذي كان يَنْعَمُ بِهِ، إلى جوٍّ مليءٍ بالمثيراتِ الحسِّيَّةِ الخارجيَّةِ الّتي تُعيقُ قدرَتَهُ المتواضعةَ على التَّركيزِ، وضبطِ انفعالاتِه، والسَّيطرةِ على ردودِ أفعالِه. وليس هذا فحسب، بل وضعْتُهُ بِمواجهةِ كلِّ النَّاسِ الَّذين حاولوا أن يُدخلوهُ عالَـمَهم الخارجيّ ليُهدِّئوا من خوفِهِ، في وقتٍ هو بأمسِّ الحاجةِ فيه للعودةِ إلى عالَمِهِ الدَّاخليِّ كي يستعيدَ هدوءَهُ. ولأنَّهُ راحَ يتأرجحُ بين عالَمِهم الخارجيِّ وعالَمِهِ الدَّاخليِّ من دون أن تَكونَ له القدرةُ على الاختيارِ، أو تنفيذِ الاختيارِ، تَمنَّيْتُ له الموتَ. وإذا سامحَني اللهُ لأنَّني



أمرُّ بلحظاتِ ضعفٍ كهذه، وغفرَ لي، كيف يُمكنُ أن أُسامحَ نفسي، وأغفِرَ لحظةَ ضعفي، أنا الَّتي وعدْتُ نفسي، ووعدْتُ زوجي أن أكونَ قويَّةً؟ وفي اللَّحظةِ الَّتي تذكَّرْتُ فيها زوجي، فاضَ قلبي بِحبٍّ ملأَ صمتَ المكانِ بالشَّوقِ إلى دفءِ العائلةِ وحنانِ أفرادِها.

لقد حافظَ «نديم» على هدوئه طوالَ الرِّحلةِ وصولاً إلى لبنانَ. وعندما وصلْتُ تيقَّنْتُ أنَّ الله كان رفيقَ دربي، وأنَّهُ ساعدَني لحظةَ ضعفْتُ، وانتشَلَني لحظةَ سقطْتُ، وأعادَني إلى إيماني الَّذي لولاه لكنتُ فقدْتُ القدرةَ على متابعةِ رحلةٍ طويلةٍ وشاقَّةٍ فقط لأجلِ «نديم»، ولأجلِ أن يغفِرَ لي لحظاتِ ضعفي.

عدْتُ من الولاياتِ المتَّحدة الأميركيَّةِ حاملةً أساليبَ عليَّ أن أعتمدَها في عمليَّةِ التَّواصلِ مع «نديم»، وإيمانًا عميقًا بأنَّ الله لا يتركُ الإنسانَ الَّذي يؤمنُ به ويوكلُ إليه أمرَهُ، وأنا أؤمنُ بالله، وقد أوكلْتُ إليه أمري. والحقَّ أقولُ إنَّ هذا الإيمانَ ساعدَني كثيرًا في تَحمُّلِ ما لا يُحتملُ من الألمِ لدى رؤيةِ معاناةِ «نديم» في عمليَّةِ دمجِهِ مع محيطِهِ الخارجيِّ، كما مدَّني بكثيرٍ من القوَّةِ الَّتي كنتُ بِحاجةٍ إليها ولا أزالُ.

الفصل السَّادس: الدَّمجُ الاجتماعيّ والبرنامجُ التَّربويّ

لا يُمكنُ أن أصفَ شعوري يومَ قمْتُ بتسجيلِ «نديم» في المدرسةِ الَّتي يُتابعُ فيها ولدي «نبيل» دراستَه . لقد أدركَتْ مديرةُ المدرسةِ، في ذلك الوقتِ، أنَّ «نديم» يُعاني مشكلاتٍ كثيرةً، وأنَّهُ سيُعاني صعوباتٍ تعلُّميَّةً على صعيدِ الإصغاءِ والقراءةِ والكتابةِ والتَّحليلِ واتِّباعِ خطواتِ العملِ والتَّقيُّدِ بالإرشاداتِ والتزامِ القواعدِ والقوانينِ . ومع هذا لم ترفضْ إدخالَهُ إلى الصَّفِّ ليكونَ جزءًا من مجموعةٍ هو لا يشعرُ بالانتماءِ إليها، ولكنَّني أنا كأمٍّ لا أريدُ أن أراهُ خارجَها .



ولأنَّ مديرةَ المدرسةِ كانتْ إنسانةً قبل أن تكونَ أمًّا، وأمًّا قبل أن تكونَ مديرةً تُطبِّقُ أنظمةً، لَمْ تطرحْ عليَّ أسئلةً اعتقدَتْ بلطفِها وحكمتِها أنَّها تُؤْلِمُني.

لَمْ أقلْ لَها يومًا إنَّ «نديم» يُعاني التَّوحُّد ، ولكنَّها كانتْ تعرفُ، لذلك سهَّلَتْ عمليَّةَ دمجِهِ اجتماعيًّا، كما سمحَتْ بإخضاعِهِ ، وعلى نفقَتنا الشَّخصيَّةِ ، إلى برنامجٍ تربويٍّ علاجيٍّ مناسبٍ لحاجاتِهِ الخَاصَّةِ خلالَ ساعاتِ الدِّراسةِ . وكانت تلك المرَّةَ الأولى الَّتي أُدركُ فيها قيمةَ المالِ وأهميَّتَهُ في مثلِ هذه الحالةِ، وفي الكثيرِ غيرِها . فلَم أقفْ يومًا لأحصيَ ما معي من نقودٍ ، أو كم صرفْتُ. لطالَما كان معي ما يكفي لشراءِ ما أحتاجُ إليه، أو أرغبُ فيه، ولذلك اعتبرْتُ المالَ جزءًا طبيعيًّا من دورةِ الحياةِ اليوميَّةِ. وبالمقابلِ، لَم أقفْ يومًا لأسألَ :«لو لَم يَكن معي المالُ الكافي فَما كان عليَّ أن أفعلَ ؟». إلاَّ أنّني وقفْتُ هذا الموقفَ وسألْتُ على أثرِ المبالغ الَّتي كنَّا نقومُ بتسديدِها تباعًا لتمكينِ «نديم» من متابعةِ البرنامجِ التَّربويِّ العلاجيِّ داخلَ لبنانَ وخارجَهُ. والسّؤالُ الّذي كنتُ أخجلُ من طرحِهِ بصوتٍ عالٍ هو : «لو لم تكن لنا القدرةُ على دفعِ تكاليفِ إخضاعِه للبرنامجِ التَّربويِّ العلاجيِّ المناسبِ لحاجاتِهِ الخَاصَّةِ ، فما الَّذي كان يُمكنُ أن يَحصلَ معه، أو أن يَحصلَ له ؟». وكم كان الجوابُ يُخيفُني !

تَمَّ دمجُ «نديم» اجتماعيًّا من خلالِ دخولِهِ إلى الصَّفِّ . في البدايةِ لم يُظهرْ تفاعلاً مع محيطِهِ الجديدِ، كما لم يُظهرْ تأقلمًا مع

متطلِّباتِ هذا المحيطِ، فالأمرُ لَم يكنْ سهلاً ، ولكنَّهُ لن يكونَ مستحيلاً إذا تَمكَّنّا من أن نؤمِّنَ له ما هو بِحاجةٍ إليه، وهذا ما سعيْنا، كعائلةٍ، وكمدرسةٍ لتأمينِه .

رافقَتْ «تَمارا»، المربّيةُ التّقويميَّةُ، «نديم» خلال وجودِه في المدرسةِ، وتَمثَّلَ دورُها في رصدِ الصّعوباتِ الّتي يُواجِهها ، ووضعَ برنامجٍ في إطارٍ تعليميٍّ، عليه أن يتّبِعَهُ، بإشرافِها، ليبدأَ عمليَّةَ تخطّي هذه الصّعوباتِ.



«تَمارا» كانتِ الأقربَ إلى عقل «نديم» ، فقد تَمكَّنَتْ من توسيعِ مداركِه ضمن الأطرِ المتوقَّعةِ ، إذْ لا يُمكنُ لِمَن يُعاني التَّوحُّدَ أن يَتخطَّى صعوباته التَّعلُّميَّة بالمطلق. يكفي أن يكون قادرًا على المحاولةِ ليُسجَّلَ له إنجازٌ ، والحقيقة أنَّ «نديم» تَمكَّنَ من تسجيلِ الكثيرِ من الإنجازاتِ ، فقد ارتاحَ مع «تَمارا»، واعتادَ وجودَها في برنامجِ يوميَّاته .

وخصَّصتْ «سارة» المعالجةُ النَّفسيَّةُ، وقتًا لمراقبةِ تصرّفاتِ «نديم» في المدرسةِ ، وتَحديدًا علاقَته مع نفسِه من جهةٍ ، ومع زملائه وزميلاتِه من جهةٍ ثانية . كما كانت تُراقبُ علاقاته مع المعلِّماتِ ، وتأثيرَها سلبًا أو إيجابًا على تطوّرِه العقليّ ، ومدى اكتسابِه للمهاراتِ المطلوبةِ في هذه المرحلةِ العمريَّةِ ، ولو بالحدِّ الأدنى . وكثيرًا ما كانت تُقدِّمُ النَّصائحَ العلميَّةَ لتُنظِّمَ محيطَهُ، في المدرسةِ كما في البيتِ ، بطريقةٍ واضحة بالنِّسبةِ إليه، وثابتة، وكان هذا، من النَّاحيةِ العلميَّة، أمرًا ضروريًّا ، إذْ يَجبُ أن نعيدَ الأشياءَ الَّتي يَستخدمُها إلى مكانها، وأن نتجنَّبَ تغييرَ أمكنتها كي نُسهِّلَ عليه عمليَّةَ الوصولِ إليها . فشعورُهُ بافتقادِ شيءٍ قد يُربكُهُ ، الأمرُ الَّذي يَجعلُهُ فاقدًا للسَّيطرةِ على ردودِ أفعالِه وضبطِ انفعالاتِه . وجودُ نظامٍ معيّنٍ ، وترتيب يَجبُ ألاَّ يَتغيَّرَ ،لم يكونا هدفَ «سارة» الوحيدَ ، بل تعليم «نديم» كيف يتقبَّلُ التَّغييرَ ،



وكيف يتعاطى معه، الأمرُ الّذي كان يؤثّرُ سلبًا على مزاجه.

«سارة» كانتِ الأقدرَ على فهم تقلُّباتِ مزاجِ «نديم»، لكنَّ هذا لَم يَمنعْ مِنْ أن يُفاجئها بتصرُّفٍ سلبيٍّ لَم تكنْ تتوقَّعُهُ، أو تصرُّفٍ إيجابيٍّ، الأمرُ الَّذي يَجعلُها تشعرُ، ولو من دون أن تَعترفَ بذلك علانيةً، أنَّها، وعلى الرُّغم من كلِّ محاولاتِها، تقفُ على عتبةِ بابِ

عالَمِهِ، غيرَ قادرةٍ على الدّخولِ لترى ما يرى وتَسمعَ ما يسمعُ ، وغيرَ قادرةٍ على الدّخولِ لتفهمَ كيف يُفكِّرُ وبماذا .

كثيرًا ما خيَّبَ «نديم» توقّعاتِ «سارة» ، لكنّ النَّجاحَ الَّذي حقَّقَتْهُ يتمثَّلُ في تَمكُّنِها من إفهامِهِ كيفيَّةَ تقويمِ مزاجِهِ عبر تَحديدِ اللَّونِ الَّذي تَمَّ الاتّفاقُ بينهما على أنّهُ يَعني حالةً معيَّنةً من حالاتِهِ



النَّفسيَّة. قدرةُ «نديم» على تقويمِ مزاجِهِ بشكلٍ صحيحٍ، وجرأتُهُ على تحديدِ اللَّونِ المناسبِ له ، أمرانِ ساعدا جميعَ أعضاءِ فريقِ العملِ الذي كان يُتابِعُهُ ، كما ساعَدَانا في المنْزلِ لتفهّمِ حالتِهِ ، ومحاولةِ التَّكيّف معها .

وثابرَتْ «سلمى» ، معالِجَةُ النّطقِ ، على تَخصيصِ ساعتيْنِ يوميًّا تَقضيهما برفقةِ «نديم» في الصَّفِّ ، لتُساعدَ في تعليمِهِ كيفيَّةَ التَّعبيرِ عن أفكارِهِ ومشاعرِهِ شفهيًّا. والحقيقةُ أنَّ مهمَّةَ «سلمى» لَم تكن سهلةً على الإطلاقِ ، لأنَّ «نديم» ككثيرٍ من الأطفالِ الّذين يُعانونَ التَّوحُّدَ ، يواجهُ صعوباتٍ عند محاولةِ التّواصلِ تتمثَّلُ في صعوبةِ النّطقِ إلى حدِّ عدمِ التَّمكّنِ من الكلامِ ، وإطلاقِ أصواتٍ لا يفهمُها أحدٌ ، أو إرسالِ إشاراتٍ كثيرًا ما تكونُ مبْهمةً بالنّسبةِ لمن يراها .

«سلمى» كانت صوتَ «نديم» الواضحَ والمسموع . فقد كانَتْ تَفهمُ ما يريدُ أن يَقولَهُ ، وتُحاولُ أن تُعلِّمَهُ كيفَ يقولُهُ بصوتٍ واضحٍ ومسموع . وإذا قلْتُ إنَّ «سلمى» لا تزالُ حتَّى اليوم تُثابرُ في أوقاتِها المحدَّدة على متابعة «نديم» فكأنَّني أقولُ إنَّ «نديم» لا يزالُ بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى تعزيزِ وظائفِ الفهم والتَّعبير ، وهذه حقيقةٌ تدفَعُنا لنتابعَ ، كما أنَّها إشارةٌ إلى أنْ لا نِهايةَ لطريقِ علاجِهِ .

أمَّا «فادي» المعالِجُ لوظائفِ «نديم» الحركيَّة فلم يَكن يُفوِّتُ وقتًا يَسمحُ له بأن يَكون معه إلاَّ تراه هناك، إلى جانبِه، في الصَّفِّ، في ملعبِ الأنشطةِ الرِّياضيَّةِ، ووقت الاستراحةِ حيث يُحبُّ الأطفالُ أن يتشاركوا الألعابَ الَّتي كثيرًا ما كانت تَحتاجُ منهم إلى حركاتٍ جسديّةٍ وقدرةٍ على التّوازنِ، وهي مهاراتٌ يَفتقدُها «نديم».

«فادي» كان، كظلِّه، الأقربَ إلى جسدِه. وكثيرًا ما كانت الجلساتُ معهُ تُسبِّبُ تعبًا يبدو ظاهرًا على وجه «نديم» وقدراتِه الحركيِّة، إلاَّ أنَّ وجودَهُ في حياةِ «نديم» كان على درجةٍ كبيرةٍ من



الأهميَّةِ . فقد كان من المهمِّ أن يتعاطى معه شابٌّ يَستطيعُ أن يشرحَ له بطريقةٍ علميَّةٍ وظائفَ جسدِهِ الَّذي يَنمو، وكيف يَجبُ أن يتعاملَ مع هذا الجسدِ من حيث تأمينُ نظافَتِهِ وتوفيرُ سلامَتِهِ. لقد هدفَت محاولاتُ تطويرِ طاقاتِ «نديم» الجسديَّةِ إلى تطوير طاقاتِهِ العقليَّة، الأمرُ الَّذي كان سينعكسُ حتمًا على علاقاتِهِ الاجتماعيَّة. وقد تَمكَّنَ «فادي» من خلالِ بناءِ علاقةٍ قائمةٍ على الحبِّ والتَّفهّمِ والاحترامِ من مساعدةِ «نديم» على فهمِ معنى أن يَكونَ مسؤولاً عن المحافظةِ على جسدِهِ نظيفًا وسليمًا في كثيرٍ من الأحيان .

الفصل السَّابع: بين اليأس والأمل

ولم يقتصرِ الأمرُ على متابعةِ «نديم» خلال دوام المدرسةِ ، بل كنتُ أصطحبُهُ خلال فترةِ بعد الظّهر ، لزيارةِ «تَمارا»، و«سارة» و«سلمى» و«فادي» بِحسبِ الجدولِ الَّذي وضعتْهُ «سارة» بالاتّفاقِ مع فريقِ العملِ التَّربويِّ والعلاجيِّ، والَّذي حرصت من خلالِهِ على تَخصيصِ وقتٍ ثابتٍ لكلِّ نشاطٍ، الأمر الَّذي سيوفِّرُ له حسًّا من



الثَّباتِ والاستقرارِ والأمانِ ، وهذا ما يَحتاجُ إليه حتمًا في كلِّ الأوقاتِ ليُظهرَ التَّطوّرَ المطلوب .

والسّؤال الَّذي كنتُ أطرحُهُ في كلِّ مرَّةٍ أشعرُ فيها بالتَّعبِ لكثرةِ الانتقالِ من مكانٍ إلى مكانٍ برفقةِ «نديم» هو : متى سيَشفى من حالةِ التَّوحُّد؟ والجوابُ نفسُهُ كنتُ أسمعُهُ : «نديم» لن يَشفى، لكنَّهُ سيُظهرُ تطوّرًا إيجابيًّا في تقديرِهِ لذاتِهِ بفضلِ الحبِّ الَّذي تُحيطونَه به، والرِّعايةِ الَّتي لا تبخلونَ بتقديمِها، في كلِّ وقت، إليه. كما أنَّه سيُظهرُ تطوّرًا إيجابيًّا في قدراتِهِ وتنميةِ مهاراتِه بفضلِ البرنامجِ التَّربويِّ والعلاجيِّ الَّذي يَخضعُ له .



والحقيقةُ أنّ هذا الحبَّ ، وهذه الرِّعايةَ ، وهذا البرنامجَ المكثَّفَ الَّذي خضعَ له بِمنتهى الرِّضى والاستسلام، أمورٌ لم تُنقذْ «نديم» من خسارةِ مقعدِهِ الدِّراسيِّ عندما وصلَ إلى المرحلةِ الابتدائيَّةِ ، ولَم تُنقذْني من شعوري بالفشل . وكاد تيَّارُ اليأسِ يَجرفُني بعيدًا لولا هذه اليدُ الَّتي امتدَّتْ لتُعيدَني إلى شاطئِ الأمان، يدُ زوجي، هذا الَّذي ، إنْ لَمْ أذكُرْهُ وأنا أستعيدُ حكايةَ «نديم» ، فلأنَّهُ لا يغيب. حاضرٌ دائمًا، وموجودٌ أبدًا ، إنْ لَم يكن إلى جانبي ، فلأنَّهُ خلفي يَدفعُني إلى الأمام. كنتُ أعتقدُ قبلَهُ ما يَعتقدُهُ الجميعُ من أنَّ الرّجلَ يفكِّرُ بعقله مُتجاهلاً قلبَهُ، ولذلك يكونُ الأقدرَ على اتِّخاذِ القرارِ الأصعبِ. معهُ تعلَّمْتُ أنَّ على الإنسانِ، رجلاً كان أو امرأة، عند مواجهةِ الصِّعابِ، أن يُفكِّرَ بقلبِهِ ويشعرَ بِعقلِهِ الَّذي سيقودُهُ إلى القرارِ الأنسب .

الفصل الثّامن: شركاء في معرفة الحقيقة

ومن جديدٍ تدخَّلَ زوجي ليأخذَ القرارَ الَّذي لم يكنْ بإمكانِ أحدٍ سواهُ أن يأخذَهُ، قرار إدخالِ «نديم» إلى مدرسةٍ تُعنى بذوي الحاجاتِ الخاصَّةِ. هذا القرارُ كان يعني اعترافًا صريحًا منّي أنَّ ابني ينتمي إلى هذه الفئةِ من النَّاسِ ، الفئة الَّتي تَشكو من مشكلةٍ ما،



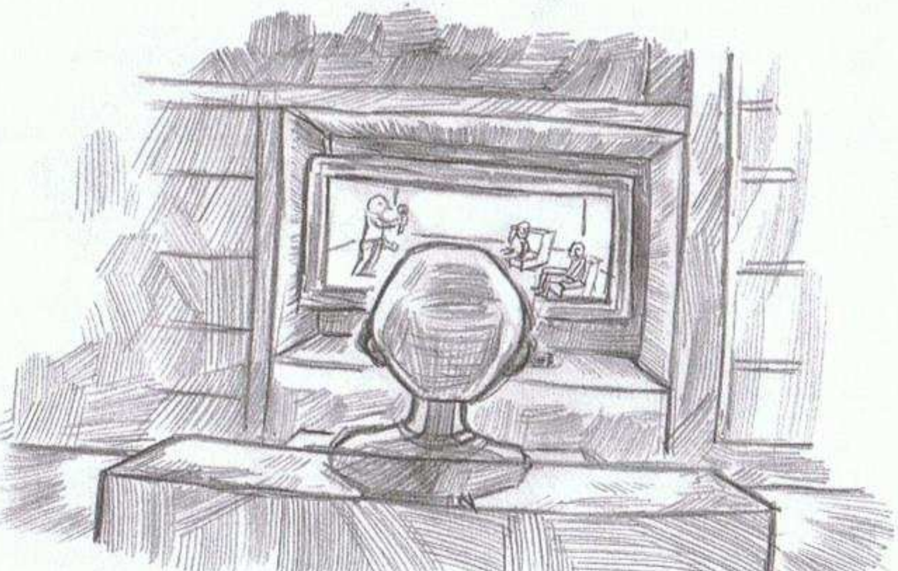
وتَحتاجُ دومًا إلى مساعدةٍ. وهذا الاعترافُ كان يقتضي منّي جلسةَ مصارحةٍ مع ولديَّ ، جلسةً لطالَما آمنْتُ بضرورةِ عقْدِها ، ولكنَّني في كلِّ مرَّةٍ كنتُ أخافُ سيلَ أسئلةٍ قد يُغرقُني، ويُفقدُني قوَّتي، ويَكشفُ ضعفي .

اقتربَ اليومُ الَّذي كنتُ أخشاه ، ورحْتُ أجمعُ كلَّ الكتب الَّتي يُمكنُني الاستعانةُ بِها لشرح حالةِ «نديم» لأخويه . ورحْتُ أقرأُ وأقرأُ بَحثًا عن أفضلِ طريقة، ولكنَّني لم أجدْ في كلِّ ما قرأْتُ وسيلةً آمنةً ألجأُ إليها ، إلى أن جاءَ ذلك اليوم .

في ذلك اليوم كنتُ جالسةً أفكِّرُ، شاردةً عمَّا يدورُ حولي، غافلةً عن هذا البرنامج الأجنبيِّ الَّذي كانت تبثُّهُ إحدى المحطّاتِ، والَّذي يعرضُ لحالةٍ تكادُ تكون حالتَنا . فقد استقبلَتْ معدَّةُ البرنامجِ ومقدِّمَتُهُ عائلةً مؤلَّفةً من أبٍ وأمٍّ وولديْن ، يُعاني الولدُ الثَّاني التَّوحُّدَ، فيما يُعاني الولدُ الأوَّلُ حزنًا عميقًا لأنَّ جميعَ أصدقائِهِ يسخرونَ من أخيه، أو في أحسنِ الأحوالِ يُشفقونَ عليه، وهو يرفضُ سخريَّتَهم، ويرفضُ أكثرَ شفقَتَهُم .

أعادَني الحوارُ الَّذي كان يدورُ مباشرةً على الهواء إلى بيتي، فإذا بابني الكبير «نبيل» يَجلسُ من دونِ حراكٍ ، يُصغي من دونِ تعليقٍ، يُتابعُ بِمشاعرِهِ وأفكارِهِ قبلَ أن يُتابعَ بِحواسِّهِ ما كان يُعْرَضُ من شرحٍ

لحالةِ التَّوحُّدِ، وتفصيلٍ لخصائصِه، وكيفيَّةِ تأثيرِه على الطِّفلِ الّذي يُعاني التّوحّدَ، وطرقِ التَّعاطي معه، والتَّعريفِ بالوسائلِ المساعدةِ والأنشطةِ الضَّروريَّةِ للنّهوض به من عزلتِه. كما تطرَّقَ البرنامجُ لحالةِ الأمِّ النفسيَّةِ، وحالةِ الأبِ الَّذي كان يُحاولُ تَجاوزَ المشكلةِ باستيعابِها، والتَّعاطي معها كأمرٍ واقعٍ لا مفرَّ منه، وحالةِ الابن الّذي يُعاني التَّوحُّدَ والّذي بدا أنَّهُ الحلقةُ الأضعفُ في هذه العائلةِ، في وقتٍ يُصارعُ فيه الابنُ البكرُ في فرضِ احترامِ أخيه من دون أن ينجحَ في ذلك ، فتراهُ يتأرجحُ بين التَّعاطفِ معه والنِّقمةِ عليه لِما يُسبِّبُهُ له من إحراج .



لا أدري متى انتهى البرنامجُ وكيف ، ولكنَّ ما أذكرُهُ حقًّا إلى اليوم أنَّ «نبيل» غادرَ غرفةَ الجلوسِ من دون أن يلتفتَ إليَّ، أو يُظهرَ ما يدلُّ على أنَّهُ فَهِمَ ما رآهُ ، أو أنَّه لم يفهمْ . وفي اليومِ التَّالي سمعْتُ طرقًا على بابِ غرفتي المشرَّع، نَهضْتُ فإذا بابني «نبيل» يقفُ عند البابِ، جامدًا من دون حراك، وما إن اقتربْتُ منه حتَّى رمى بوجهي السّؤالَ : « هل يُعاني «نديم» التَّوحُّدَ ؟» . سؤالٌ كان كلَّ ما أحتاجُ إليه لأجيبَ بِـ «نعم».

«نعم» كانت كافيةً لنُصبحَ جميعُنا شركاء في معرفةِ الحقيقةِ، حقيقة «نديم». هذه الحقيقةُ الَّتي علينا أن نعيشَها، لا أن نتعايشَ معها، والفرقُ يكمنُ في قدرتِنا على الحبِّ، إذْ كلَّما أحببناهُ وتقبَّلْناهُ تَمامًا كما هو استطعْنا أن نَعيشَهُ، ونَجعلَهُ يعيشُ معنا. وكلَّما عجزْنا عن ذلك ابتعدَ عنَّا وصرنا نتعايشُ مع فكرةِ بعده، وهذا ما لم أكنْ لأقبلَ به أبدًا أبدًا أبدًا .

الفصل التَّاسع: نِعمة اسمها «نديم»

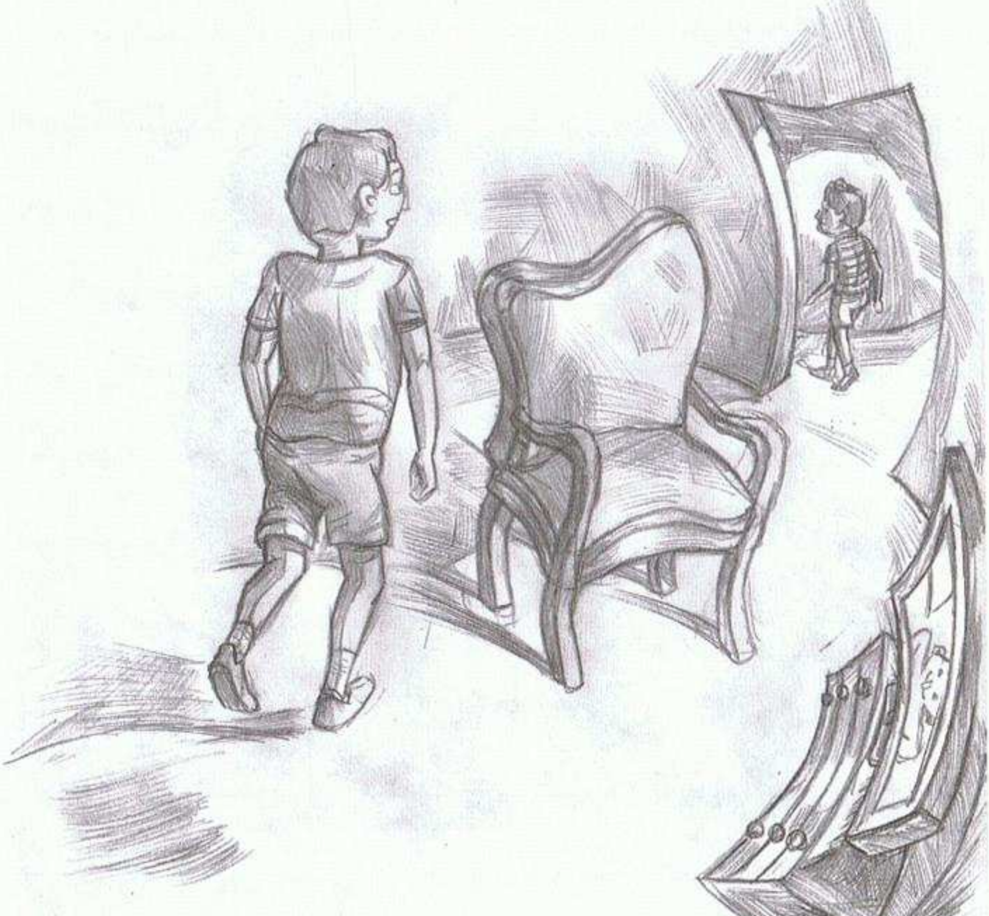
الآنَ جاءَ دوري، أنا «نبيل»، لأكملَ الحكايةَ.

لقد بقيتُ طوال تلك الليلةِ ساهرًا أستعيدُ ما شاهدْتُهُ في ذلك البرنامجِ الَّذي أفسح المجالَ أمام كلِّ فردٍ من أفرادِ عائلةٍ يُعاني ابنٌ من أبنائها التَّوحُّدَ كي يتحدَّثَ عن مشاعرِه، ويَنقلَ الصّورةَ من زاويتِهِ.

بقيتُ طوال تلك الليلةِ أَجمعُ تفاصيلَ الصّورةِ لتكتملَ أمامَ عينيْ، فإذا بي أرى فيها صورةَ «نديم». وبقيَ سؤالي ينتظرُ الصَّباحَ: «هل يُعاني «نديم» التَّوحُّدَ ؟». وما إنْ أطلَّ الصَّباحُ حتّى حملْتُ السّؤالَ إلى أمِّي الَّتي أجابَتْ بنعم.

«نعم» كانت كافيةً لتُعيدَني إلى غرفتي، حيث رحْتُ أستعيدُ أيَّامَ حياتي الماضيةَ، وغيابَ أمِّي عن المنْزلِ مع «نديم» لأشهرٍ أو ساعات، لم يكن يُزعجني في ذلك الوقتِ كم ستغيب ، ما كان يُزعجُني حقًّا أنَّها لا تصطحبُني معها ، في وقتٍ تصطحبُ فيه «نديم». وهذا يعني بما لا يقبلُ الشَّكَّ أنّها تُحبُّهُ أكثرَ ممَّا تُحبُّني، وأنا الَّذي انتظرْتُ بفارغِ الصَّبرِ ولادتَهُ ليكونَ لي رفيقًا دائمًا في البيتِ وخارجه، وحجزْتُ له، في خيالي، مقعدًا إلى جانبي في الحافلةِ المدرسيَّةِ ، كما في كلِّ صفٍّ سبقَ أن دخلْتُهُ على مدى أيَّامِ أعوامي الدّراسيّة .

«نعم» كانت كافيةً لتُعيدَني إلى أكثرَ ما كان يُحزنُني، إلى نوباتِ بكاءِ «نديم» وصراخِهِ ، ونظراتِ أمّي وحيرتِها ، وخوفي من شيءٍ ما لم أكن قادرًا في يومٍ على شرحِهِ أو تبريرِه . كأنَّني كنت أخافُ من هذه اللَّحظةِ ، لحظة أكتشفُ أنَّ «نديم» مختلفٌ، لا يُشبهُني، ولا يُشبه أبناءَ الجيرانِ الَّذين كثيرًا ما كانوا يسمعونَ صوتَهُ ويسألونَ عن سببِ



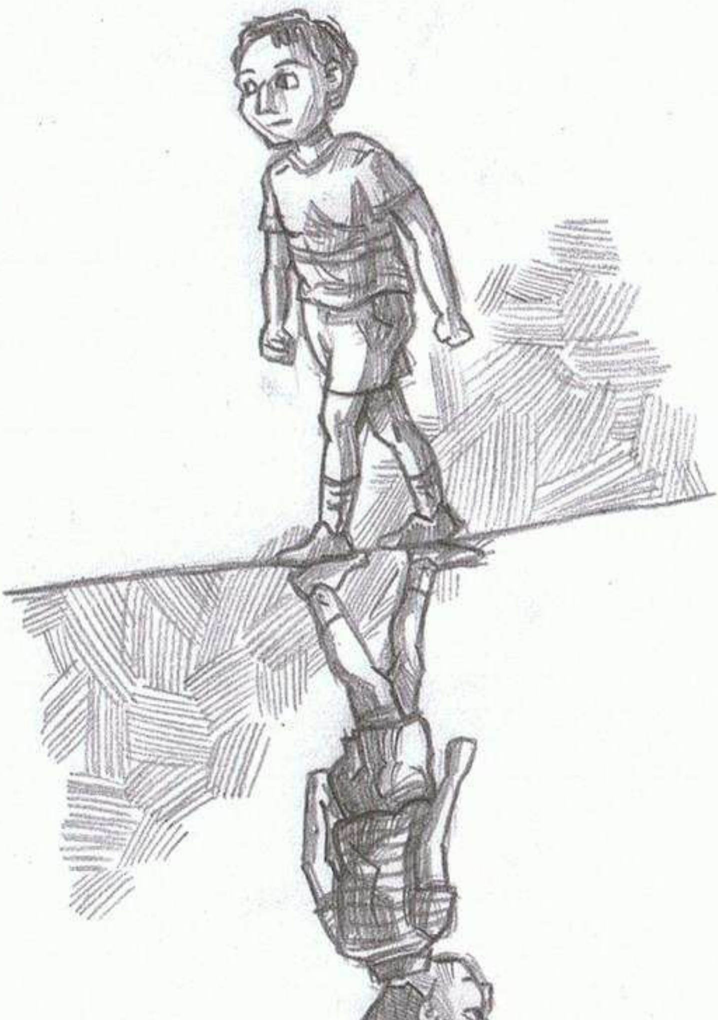
صراخهِ شبهِ المستمرِّ من دون أن يسألوا. أحيانًا لا تَحتاجُ الأسئلةُ إلى صياغةِ جملٍ، إذْ تكفي النَّظراتُ الّتي كنتُ أهربُ منها بعيدًا عنهم فقط لأنَّني لا أملكُ الجوابَ ، ولا القدرةَ على التَّفسيرِ .

«نعم» كانت كافيةً لتُعيدَني إلى أكثرَ ما كان يوجِعُني، إلى تلك الأوقاتِ الكثيرةِ الَّتي شعرْتُ فيها أنَّ «نديم» لا يُحبُّني لأنَّه كان يرفضُ أن يَجلسَ معي ، أو يَحكيَ معي، أو يَلعبَ معي. كان يَخرجُ من الغرفةِ إذا دخلْتُ إليها، ويتركُ لي المقعدَ إذا جلسْتُ إلى جانبِهِ لأشاهدَ ما يُشاهدُهُ من برامجَ تلفزيونيَّةٍ. اللَّحظةَ فقط أدركْتُ أنَّهُ كان يُحبُّني كثيرًا وربَّما أكثرَ ممَّا أحْبَبْتُهُ أنا ، لأنَّهُ ما كان يَطلبُ منِّي أن أُغادرَ أنا أمكنتَهُ، ولكنَّهُ كان هو مَن يُغادرها، على الرُّغم ممّا تُوفِّرُ له أمكنتُهُ من أمانٍ.

«نعم» كانت كافيةً لتُعيدَني إلى ذاكرتي، حيثُ رحْتُ أبْحثُ عن «نديم»، فإذا به في تفاصيلِ كلِّ يومٍ ، وفي انعكاسِ كلِّ وجهٍ، وفي صدى كلِّ كلمةٍ. ولم أكن قد انتبهْتُ من قبل إلى أنَّه يُقيمُ بنا وليس معنا فقط، وأنَّهُ يَملأُ ذاكرَتَنا العائليَّةَ، وأنَّنا معه أحلى .

«نعم» كانت كافيةً لتُعيدَني إلى قلبي، حيثُ رحْتُ أبْحثُ عن «نديم»، فإذا بقلبي ينبضُ بِحبِّهِ الكبيرِ. لَم أنتبه قبلَ اليومِ كم أُحبُّهُ، وكم يُحبُّنا .

لَم يقصدْ يومًا أن يُزعجَ أيًّا منَّا ، أو أن يُثيرَ غضبَنا. والحقيقةُ أنَّنا إذا كنَّا ننْزعجُ أو نُثارُ فلضيقِ صدرِنا ، وقلَّةِ صبرِنا.



ما كان أسهَل أن يرى المرءُ كم يستطيعُ «نديم» أن يُحبَّ، على الرَّغم من عجزِهِ عن التَّعبيرِ عن مشاعرِهِ ! فكيف لم ألحظْ ذلك الحبَّ في صفاءِ عينيْهِ بعد نوبةِ بكاءٍ ؟ كان يَسهلُ جدًّا أن ألمسَ عمقَ الحبِّ الَّذي يُخبِّئُهُ. فكيف لم أنتبه إلى ذلك الحبِّ في رجعِ ضحكاتِهِ عندما يكونُ هادئًا؟ كان يُمكنُ أن أشعرَ بِحبِّهِ يَعبقُ بالأمكنةِ. لا يُعقلُ ألاّ أكونَ قد شعرْتُ بِحبِّي له وحبِّهِ لي طوال هذه السَّنوات. طبعًا شعرْتُ، ولكنَّني اعتبرْتُهُ شعورًا طبيعيًّا لا يستحقُّ أن أتوقَّفَ عندهُ خلال مسيرةِ حياتي. أمَّا اليوم، فها أنا أتوقَّفُ لأنّني الآنَ أدركْتُ كم هو كبيرٌ حبُّهُ لنا، وعميقٌ حبُّنا له. ولأوَّلِ مرَّةٍ في حياتي أشعرُ أنَّ الله يُحبُّنا كثيرًا لأنَّهُ خصَّنا بنعمةٍ كبيرةٍ أسميناها «نديم».

«نعم» كانت كافيةً لتُغيِّر نظرتي إلى أمِّي وأبي وأخي وأختي والعالَمَ من حولي. والأهم أنّها كانت كافيةً لتغيِّرَني. فكأنَّني بعد تلك اللَّحظةِ انقسمْتُ إلى نصفيْنِ: عينٌ على نفسي، وعين على «نديم». أُذنٌ ترصدُ ما يدورُ حولي، وأُذنٌ ترصدُ ما يقولُ «نديم». نصف فكري ينشغلُ عنه، والنّصفُ الثّاني يَنشغلُ به. وحده قلبي لم أتَمكّن عبر توالي الأيَّامِ من أن أُبعدَ «نديم» ولو عن جزءٍ صغيرٍ، صغيرٍ جدًّا منه. بقي يَحتلُّ مساحاتِهِ كاملةً، وكم كنتُ سعيدًا باحتلالِهِ قلبي بِمنتهى الرِّضا.

لَم أوجِّهْ يومًا اللَّومَ إلى أمِّي لأنَّها أخفَتْ عنِّي حقيقةَ مشكلةِ «نديم» لأنَّني لطالما آمنتُ أنَّني علمْتُ الحقيقةَ لحظةَ كان يَجبُ أن أعلمَ، لحظةَ كان يُمكنُ أن أفهمَ، لحظةَ كان بإمكاني أن أمدَّ له عقلاً منفتحًا يتقبَّلُهُ وقلبًا كبيرًا يُحبُّهُ، وقدرةً على الوقوفِ أمامَ النَّاس لأشيرَ إليه بقولي: هذا أخي، نِعمةٌ من نِعمِ الله علينا، أنا أُحبُّهُ وهو يُحبُّني، والحياةُ معه هي الأحلى.

شكرًا لكِ أمِّي لأنَّكِ تَمكَّنتِ في لحظة ضعفكِ من أن تقولي «نعم»، وربَّما كانت لحظةً من لحظاتِ قوَّتِك، والأغلبُ أنَّها كذلك لأنَّ هذه الـ «نعم» مدَّتْني بكلِّ القوَّةِ الَّتي أحتاجُها لأدفعَ «نديم» دائمًا، وبرفقٍ، إلى أمكنتي، ومساحاتِ حياتي، علَّني بذلك أُعيدُهُ إلينا، إلى عالمِنا، ولو من حينٍ إلى حين.

ويبقى أن أؤكِّدَ لكم يا كلَّ الأصدقاء أنّي لو خُيِّرْتُ بين حياة مع «نديم» أو حياةٍ من دونِهِ لاخترْتُهُ بكلِّ الحبِّ الّذي أشعرُ به الآن. لقد تَمكَّن «نديم» من أن يُعلِّمَنا معنى أن نُحبَّ وأهميَّةَ أن نُحَبَّ. شكرًا لك يا أخي، شكرًا لله لأنّه اختارني لأكونَ أخًا لك.



ويبقى عليكم أن تقرّروا

ما إذا كانت حكاية «نديم»

حكاية مشكلة أو حكاية حبّ.

الفهرس

حكاية نديم: التّوحّد

لَم أوجِّهْ يومًا اللّومَ إلى أمّي لأنّها أخفَتْ عنّي حقيقةَ مشكلةِ "نديم" لأنّني لطالما آمنتُ أنّني علمْتُ الحقيقةَ لحظةَ كان يَجبُ أن أعلمَ، لحظةَ كان يُمكنُ أن أفهمَ، لحظةَ كان بإمكاني أن أمدّ له عقلاً منفتحًا يتقبَّلُهُ وقلبًا كبيرًا يُحبُّهُ، وقدرةً على الوقوفِ أمامَ النّاس لأشيرَ إليه بقولي: هذا أخي، نِعمةٌ من نِعمِ الله علينا ، أنا أُحبُّهُ وهو يُحبُّني، والحياةُ معه هي الأحلى.

ISBN 614-402-506-2

9 786144 025062

Book # A 625

أصالة
للنشر والتوزيع